أزمتنا مع الاستشراق

د. مشتاق بشير الغزالي
كلية التربية للبنات/جامعة الكوفة

ملخص البحث

لا يخفى على المطلعين ان النتاج الاستشراقي قد ساهم في تسليط الضوء على جوانب مهمة وكثيرة من تراثنا، ورغم المأخذ على كثير من الكتابات ، الا ان هنالك كتابات كانت منصفه او قريبه من الانصاف بحق العالم الاسلامي .

ومما يؤسف له ان الفكر العربي لم يؤسس له موقفاً منصفاً من الاستشراق ، اذا تعامل معه بعدائيه ورفض كل ما صدر عنه، ولقد حاولنا البحث في اسباب هذا الموقف العربي من الاستشراق ، فوصلنا الى ان المفكر العربي لم يميز بين الكتابات الاستشراقية ، وكان يتصور ان كل ما يصدر من الغرب بخصوص العالم الاسلامي هو استشراق ، وهذا في حقيقة الامر فهم خاطئ لان جزء من تلك الكتابات قد صدرت من رجال دين او ادباء او فلاسفة غربيين ليس لهم علاقة بهذا العلم .

ايضا حاولنا ان نعرف مفهومي الاستشراق والمستشرق ونحدد بدايات الكتابة الاستشراقية وماهي المؤثرات التي لعبت دور كبير على سيرها .

المدخل

ليس من الصعب على أي قارئ ان يدرك الإشكالية التي يعيشها الفكر العربي الإسلامي في نظرته وموقفه من الاستشراق ، الإشكالية التي تمثلت بتضارب واختلاف مواقف المفكرين العرب من أعمال المستشرقين عموماً، بالرغم من ان الغالب على هذه المواقف هو الرفض القاطع لكل ما صدر ويصدر عن المستشرقين من دراسات وأراء .

وكنت أقف حائراً متسائلاً عن أسباب هذا التحامل الشديد ، هل كان الاستشراق سيئاً إلى هذا الحد ؟ وهل يستحق هذا العداء من قبل رموز هامه من مفكرينا ؟ أم ان اولائك الرموز لم يقفوا بعد على ماهية الاستشراق ، ولم يتعرفوا بشكل دقيق وواضح على حجم النتاج الاستشراقي وطبيعته ، وقد صدرت أحكامهم ناقصة كونهم لم يطلعوا على النتاج الاستشراقي بشكل كامل ولم يتعرفوا الا على جزء يسير منه ، وبالتالي جاءت احكامهم متأثره بما اطلعوا عليه وهو هذا الجزء اليسير من الدراسات الاستشراقية الذي غالباً ما يكون مكتوباً باقلام متحامله ومدفوعه للاساءه للاسلام .

وفي خضّم هذه الحيرة وهذه التساؤلات قررت ان ابحث في رؤية الفكر العربي للاستشراق ، هل هي رؤية متطابقة لكامل حقيقة الاستشراق أم لا ؟

فوجدت اراءً تشكلت من دون ان يكون لأصحابها دراية كافية بمضمون الدراسات الاستشراقية ، اراء فرضت على القارئ نظره غير دقيقة جعلت من الاستشراق يعمل فقط لخدمة المصالح الاستعمارية واهدافه بعد ان اتخذ من دراسة التراث الشرقي وسيلة لمحاربة الاسلام والتشكيك في مصادره وصرف المسلمين عن دينهم فلا تتحقق لهم بعد ذلك قوة ولا عزة بل يظلون تابعين للغرب مقلدين كل الوان الفساد والانحلال [١] ، وهكذا يقف المفكر العربي من الاستشراق هذا الموقف ولا يتوانى بوصفه انه :" مهنة ضد الشرق وضد الاسلام "[٢] ، لا بل يتشدد اكثر في عَدّ النتاج الاستشراقي بانه كان شراً على المجتمع الاسلامي .[٣] وان كانت هذه الاراء تصدر عن مجموعة مهمة من مفكرينا العرب فلاشك انها مؤثرة في مجتمعاتنا

وبالتي فان هذا الموقف المتشدد ضد الاستشراق سوف لن يقتصر على هذا المفكر او ذاك ، بل سرعان ما يشيع بين القراء وابناء المجتمع ليصبح موقفاً عاماً .

ومن مقومات الإنصاف عدم الاعتراف بدقة هذه التعابير الصادرة عن نماذج من رجال الفكر والثقافة العرب المسلمين، إذ لا يمكن ان يقتصر فهمنا للاستشراق على انه لا يقدم خدماته الا للاستعمار أو انه قد امتهن العداء الفكري للإسلام والشرق ، والا بما ذا نصف الجهود التي أخرجت إلى النور آلاف المخطوطات الإسلامية محققة على أيدي هؤلاء المستشرقين الذين استمر عملهم لاخراجها لقرون طويلة ؟ وكيف نفهم السنوات الطويلة التي قضوها لتعلم اللغات الشرقية وضبطها ومن بينها العربية ليتم لهم بعد ذلك البحث والتحقيق في موضوعات الشرق الإسلامي ؟

ان اهم حقيقة لابد من ذكرها : هي ان لولا جهودهم تلك لفاتنا زادٌ علميٌ كثير ولما استفدنا من مصادر التراث الكثيرة التي نطالعها اليوم ، وكمثال على طبيعة عمل المستشرقين وكيفية انصرافهم وانكبابهم على دراسة اللغات وتراث الشرق بما في ذلك العالم الاسلامي وللوقوف على قيمة الجهود المبذولة والمنظمة نذكر ما جرى للمستشرقين الإنكليز في الهند الذين كان عليهم ان يتعلموا ويضبطوا ما يقارب الثمانمائة لغة ولهجة شائعة بين سكان الهند وهي لغات ولهجات ترجع في أصلها إلى اللغة الأم السنسكريتية[٤] ، ولم يتم هذا الأمر الا بعد نحو مائتي عام متواصلة من الجهد والمتابعة لكي يتمكنوا من دراسة تراث وديانة وشؤون ذلك البلد الكبير فكان على المستشرق ان يضبط قواعد هذه اللغات واللهجات الكثيرة ليتمكن من دراسة تراث ذلك البلد وفنونه وديانته [٥] ، وهذا الحال لم يكن مختلفاً عما واجهه الاستشراق في دراسة العالم الإسلامي .

الا اننا في مقابل ذلك الثناء الموضوعي على جهود المستشرقين ينبغي لنا الإشارة للكتابات الغربية العديدة التي صدرت وهي مليئة بالافتراءات والمزاعم والصور المشوهة لسيرة اشرف الخلق الرسول الكريم محمد بن عبدالله (ص) ولتاريخ المسلمين [٦]، كتابات في الأعم الأغلب أنتجها رجال دين وموظفين مرتبطين بخدمة المصالح الدينية أو الاستعمارية إضافة إلى بعض مفكري وادباء الغرب وخطأً قد حسبت هذه النتاجات على ذمة الاستشراق لانها حوت الكثير من صور الاساءه للإسلام وللنبي الكريم محمد (ص) ، وعلى هذا الاساس تحمل الاستشراق مسؤولية كل ما انتج لدى الغرب مما حوى التشويه الصريح للاسلام رغم ان مفهوم الاستشراق لا يشمل كل ما ينتج في الغرب بخصوص الاسلام .

اعتقد ان هذا الخطأ في فهم الاستشراق هو سبب رئيس في الوصول لذلك الموقف المتشنج منه ، لان عّد كل ما يصدر من الغرب عن الشرق من نتاج هو استشراق هو بحد ذاته خطأً كبيراً قد أدى بالفكر العربي الإسلامي إلى تعميم احكامه بالرفض الكامل لكل ما هو استشراقي ، ان عدم التفريق بين النتاج الاستشراقي وبين كل ما انتج لدى الغرب بخصوص الشرق جعل من الفكر العربي تصنف أي اساءه اوتحامل موجه من الغرب صوب الاسلام في خانة الاستشراق ، وفي النهاية تحمل الاستشراق مسؤولية كل ما انتجه الغرب وتكون الموقف العربي الرافض لكل ما صدر ويصدر عن الاستشراق ، في حين ان معظم الاساءات الغربية للاسلام كانت باقلام رجال دين متعصبين او ادباء ومفكرين لا علاقة لهم بعلم الاستشراق ولم يطلق عليهم صفة الاستشراق الا في عالمنا العربي ، اما لدى الغرب فهم رجال دين وادباء ومفكرين وليس مستشرقين .

ان الخطأ في فهم الاستشراق وطبيعة عمله وعلى من يصح ان يطلق كان سبباً مهماً في عدّ كل ما صدر عن الغرب هو استشراق وبالتالي جاء رفضنا له بشكل كامل .

ما هو الاستشراق (Orientalism)

يعرف البعض الاستشراق بأنه :" علم الشرق أو علم العالم الشرقي " [٧]، ويرى آخرون بأنه :" الإلمام باللغات الشرقية " [٨] . وكي يكون التعريف اكثر دقةً ووضوح اقول : ان الاستشراق هو حرفة (مهنة) تخصصية في أحدى موضوعات الشرق سواء أكانت تتعلق بعلوم أو فنون أو تراث أو ديانة الشرق وعاداته ، وان من يقوم بهذه الحرفة (المهنة) هو من يصح ان يصطلح عليه تسمية مستشرق .

بناءً على هذا التعريف يمكن القول بان المستشرق هو صاحب الحرفة التخصصية في علوم أو فنون أو تراث أو ديانات الشرق وعاداته ، ولا يجوز لنا ان نعّد من هو خارج عملية الاحتراف هذه مستشرقاً بحجة انه كتب بحثاً أو مقالاً عن الشرق ، لأنه غير محترف لمهنة الاستشراق ، وإنما دخل هذا المجال بدافع الهواية أو خدمة المصالح الدينية المسيحية أو الاستعمارية ، ولهذا يجب التمييز بين المشتغلين في هذا الحقل الهام ، إذ لا يجوز ان نطلق تسمية المستشرق على كل من يتناول الشرق ببحث أو مقال أو كتاب بسيط لم تسبقه دراسة وتعلم في لغات وموضوعات الشرق ونساويه بمن أفنى حياته بدراسة فن من فنون الشرق ولغاته وقدم النتاجات العلمية العديدة فعملنا هذا كمن يساوي بين صاحب حرفة الحدادة الذي يقضي حياته محترفاً (ممتهناً) لصناعة الحديد ولذلك يسمى حداداً وبين من يمسك الحديد لأول مرة ، فهل يجوز ان نساوي الأول بالثاني ؟

ان عدم التمييز في إطلاقنا لتسمية المستشرق وتعميمها على كل من يبدي برأيه في الشرق مهما كان اختصاصه ، قد أوقعنا في مشكلة الاختلاف في تحديد الموقف من هذا العلم وفي تعريفه ، فوجدنا اتجاهاً متحاملاً بشده على الأستشراق وهو الاتجاه السائد في الفكر العربي الإسلامي واتجاهاً آخراً مؤيداً له واتجاه ثالث يقف بين الاثنين [٩] ، وقد تشكلت هذه الاتجاهات في وقت ساد الاعتقاد الخاطئ بأن كل ما يصدر عن الغرب بخصوص الشرق هو استشراق ، فراح أصحاب الاتجاه الأول (المتحامل) يستدلون بكل مقال أو بحث أو كلام صادر عن الغرب لدعم تحاملهم الشديد هذا ، في حين ان أصحاب الاتجاه الثاني (المؤيدين) كانوا يبحثون عما قدمه الغرب للشرق من فضل ليجعلوه عذرهم في هذا الموقف المؤيد وأما الاتجاه الثالث فقد بحث عن منصف للشرق فيشيد به وعن مبغض للشرق حتى يُشهّر به ويحذر من نتاجه .

وفي زحام هذه الآراء والمواقف المتضاربة أضعنا التمييز بين من هو مستشرق فعلاً وبين من هو (متطفل على الأستشراق) [١٠] .

أعتقد ان عملية التمييز هذه ستقودنا للوصول إلى المفهوم الصحيح للأستشراق ، وبالتالي الوقوف منه موقفاً سليم يختلف عن الموقف المتضارب المتناقض الموجود في كتاباتنا العربية الحالية ، ولن أقدم إحصاءاً بحالات عدم التمييز التي وقعنا ونقع بها بقدر ما سأسوق أحد الأمثلة عّلها توصل الفكرة .

نموذج لأحد الأخطاء الشائعة لدينا

لقد عرف عن الإنكليزي توماس كار ليل صاحب كتاب (الأبطال وعبادة الأبطال والبطولي في التاريخ) [١١] بأنه من أكثر المستشرقين إنصافاً لشخصية الرسول الكريم (ص) ، ويعده بعض كتابنا العرب بأنه من المستشرقين المرموقين ، والحقيقة ان كار ليل على الرغم من عباراته المعتدلة بخصوص سيرة رسول الله(ص) ، الا انه ليس مستشرقاً بل هو أديب وفيلسوف كان يّعد من كبار أدباء عصره ليس في إنكلترا فحسب وإنما في عموم أوربا [١٢]، وان كتابه (الأبطال) ما هو الا نظرية وضعها لعلاج ما كانت تمر به بريطانيا من مأزق كبير في عصر الثورة الصناعية ، فقد كانت حاجتها ماسه إلى قائد منقذ

يستحثها ويثور فيها عنصر البطولة الجماعي ولذلك استخدم كار ليل التاريخ في نظريته ليقدم حلاً نظرياً مقترحاً لإنقاذ بريطانيا من أزمتها الحضارية التي فرضتها ظروف غياب مركز سلطة قوي في ظل تحولات التحديث والمكننة[١٣] .

وقد ضَمّن كتابه هذا المتكون من ستة فصول فصلاً عن سيرة النبي محمد (ص) اسماه (البطولة في صورة رسول: محمد بن عبد الله) وبفضل هذا الفصل اعتقدنا نحن بانه مستشرق ، بل وضعنا بين مصاف المستشرقين ، فمن أين جاءه هذا التخصص بالأستشراق وهو لا يعرف حتى أية لغة شرقية ! ! وهذا الخطأ الذي وقعنا فيه لا يشمل الأديب البريطاني كار ليل فحسب وإنما هناك مُفكرين وأدباء وفلاسفة أوربيين وغربيين مثل فولتير وكريستيان براون وفريدرش ويوهان هيرور وفلايشر وغيرهم الكثير .

وغير هؤلاء الأدباء والمفكرين هناك فئة من رجال الدين المسيحيين والمبشرين الذين صنفوا بعض المؤلفات حول الشرق الإسلامي قمنا بوضعهم ضمن قائمة المستشرقين أيضاً بالرغم من عدم تخصصهم في مجال الدراسات الاستشراقية ولكن لكونهم قد صنفوا كتباً حول الشرق الاسلامي ارادوا بها تشويه صورة الاسلام لدى الغرب .

الأستشراق الحقيقي

أن الخطأ الذي وقعنا فيه هو تعميم مصطلح الاستشراق على فئات لا علاقة لها بهذا العلم كالأدباء والمفكرين ورجال الدين ، وبسبب هذا التعميم تعددت مواقفنا وتضاربت وظهرت اتجاهات متعددة في النظر إلى الاستشراق .

وكي نصل إلى المعنى الحقيقي له لا بد من أبعاد هذه الفئات التي أدخلناها نحن خارج هذا المجال من الدراسات ، فلا مانع من أن يتناول الأديب الغربي شخصية الرسول (ص) في أي عمل ومع هذا يبقى أديباً في التخصص وليس مستشرقاً ، أو أن يتناول رجل الدين المسيحي الإسلام ومع هذا يبقى رجل دين في التخصص،في حين ينفرد بهذا المفهوم (الاستشراق) الأستاذ الغربي المتخصص بالشرق سواء أكان الشرق إسلامياً أم غير إسلامي .

وقد يقول أحدهم أن عملية التمييز هذه قد تكون صعبة مع وجود الكم الكبير من النتاج الفكري الغربي الخاص بالشرق .

وأقول مع ضعف هذا الاحتمال ، الا انه يمكن القيام بعملية التمييز هذه من خلال قراءة محتوى النتاج والتمييز بين ماهو استشراقي وبين ماهو غير ذلك ، لأن المؤلفات الخاصة بالشرق الصادرة عن مستشرقين تختلف في نقاط عدة عن تلك المؤلفات الصادرة عن فئات غير متخصصة بهذا العلم ، ويمكن ان نجمل هذه النقاط بالآتي :

أولاً : أن المؤلفات الاستشراقية يسودها الطابع العلمي الذي يناقش ويحلل ويبحث ولا يصدر الأحكام جزافاً ، فترى فيها دراسات علمية صادرة عن أساتذة متخصصون يفندون ما يرونه غير صحيح من آراء الغرب وفي أغلب الأحيان تراهم يبحثون عن الحقائق بروح علمية ، وهذا لا يعني أنهم حياديين تماماً إذ تظهر ميول بسيطة متأثرة بالجانب العقائدي ، ولكن مع هذا فأن مؤلفاتهم تختلف تماماً عن تلك المؤلفات غير المتخصصة التي نجد فيها المزاعم الباطلة والعبارات غير المُهذبة والأحكام الهوائية المتحاملة على النبي محمد (ص) والتاريخ الإسلامي .

ثانياً : المنهجية التي يعتمدها المستشرقون هي منهجية علمية تراعي منهج البحث التاريخي في تقصي المصادر الاصيلة المهمة في موضوع بحثها وتخضع الروايات الوارده فيها الى الفحص الدقيق والتقييم قبل اعتمادها ، بينما لا تراعي تلك المؤلفات غير

المتخصصة هذا المنهج وهي تفتقر الى ابسط قواعده ، ومن المؤكد ان يكون هذا ديدنها في ترك المنهج البحثي الصحيح فهي لا تريد الا الوصول الى اهدافها الدينية او السياسية او غيرها من الاهداف الغير علمية الاخرى .

ثالثاً : نلاحظ دوماً ان المؤلفات الاستشراقية تستند على المصادر المهمة والرئيسة وغالباً ما تكون تلك المصادر شرقية اصيلة أو مخطوطات قديمة إضافة إلى المصادر الاستشراقية الرائدة في موضوع البحث ، بينما المؤلفات غير المتخصصة نراها تسطر السطور تلو السطور دون أن تراجع المصادر الشرقية وكأنك تقرأ قصصاً خيالية نابعة من أفكار المؤلفين ، وهم بدون شك لا يعرفون شيئاً عن هذه المصادر ولا عن أهمية الاعتماد عليها فتراهم يُركزون على إظهار ما يريدون ، وليس على الحقائق الموجودة فيها .

بدايات الإستشراق

والآن بعد أن تعرفنا على المفهوم الدقيق للاستشراق ، لا بد من أن نحدد البدايات الأولى لهذا النشاط الغربي الضخم الذي جعل من الشرق ميداناً لعمله ، إذ لم ينشأ الأستشراق بين ليلة وضحاها وليس هناك عام محدد يثبت تاريخ بداية هذا النشاط ، إنما هي أنشطة أوربية نشأت وتطورت وانتقلت من مرحلة إلى أخرى حتى تبلورت في أنضج صورة فسميت بالاستشراق وقد رصدت لهذه الانشطة المراحل التالية :

الاتصال الاوربي الاول بالشرق الاسلامي (ثقافياً وسلمياً)

يقول المستشرق الإنكليزي برنارد لويس[١٤] : " أن العرب وبعد أن فَتحوا شمال افريقيا ساروا بانتصاراتهم إلى أوربا واستعمروا إقليمين هامين (أسبانيا وصقلية) مدة طويلة وأسسوا فيهما مدنية زاهرة أرقى بكثير من أية مدنية معاصرة لها آنذاك في البلاد المسيحية " ، إذن المدنية العربية التي أقيمت في اسبانيا وصقلية والتي سبقت قيام الحملات الصليبية ، كانت بداية الاتصال الغربي ثقافياً بالإسلام ، ذلك أن العالمين (الشرقي المسلم والغربي المسيحي) لم يكونا بمستوى واحد من النهوض والأزدهار الفكري آنذاك ، إذ خيمت الظلال القاتمة والدياجير المظلمة على حياة الغرب خلال تلك العصور على العكس تماماً مما كان العالم الإسلامي يمر به من نهضة وازدهار ، ولذاك توجه طلاب العلم المسيحيين من بلادهم قاصدين الأندلس الإسلامية حيث مراكز العلم لينكبوا على تعلم العربية والتتلمذ على يد المعلمين المسلمين حتى صارت العربية هدفاً لكل طالب علم أوربي وكان المسيحيون الذين تعلموا العربية يحضون بالاهتمام والتقدير بين أقرانهم [١٥] ، وقد عبر أحد المستشرقين عن فضل وأهمية هذه اللغة آنذاك بالنسبة لهم قائلاً : " في القسم الأول من القرن السابع ألتهب العرب حماسة بدين جديد وبهرهم أمل الفتح في سبيل الله فأنقذفوا من جزيرتهم المالحة الجدباء وانتشروا من أسبانيا إلى الهند وما وراءها ، وقد حملوا معهم لغة قدر لها أن تصبح أداة أدب عظيم لغة كان من فخارها أنها صارت الواسطة التي نقل بها أرسطو وجالينوس اللذين كانا قد آلا إلى النسيان ، نُقلا بها على قرون عديدة حتى إستكشفا من جديد في لُغتهما الأصلية "[١٦] .

أن اتصال الغرب بعلوم المسلمين جعلهم يتعرفون على مؤلفات يونانية ورومانية قديمة لا سيما في مجال الفلسفة قام العلماء المسلمون بنقلها إلى العربية والإضافة عليها ، وبذلك عثروا على جزء مهم من حضارتهم كان العرب قد حافظوا عليه من الضياع وهذا الأمر كان دافعاً آخراً ومهما لمواصلتهم الأتصال والتعلم في مراكز العلم العربية .

وبينما كان بعض طلاب الغرب يتعلمون العربية كانوا ينقلون ما تعلموه إلى اللغة اللاتينية التي لم تكن آنـذاك أداة الطقوس الكنسية فحسب بل كانت أداة العلم ووسيلة التخاطب بين المثقفين في عموم أوربا[١٧]، وسرعان ما تأسست مراكز مهمة للترجمة من العربية إلى اللاتينية كان من أبرزها مجمعاً للمترجمين في مدينة طليطلة التي كانت من أكبر مراكز العلـم في الأندلس الإسلامية وكان هذا المجمع قد تأسس على يد رئيس أساقفة طليطلـة ريمونـد (RAYMUND) في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي ، فعهد ريموند برئاسته إلى شـخص يـدعى دومنيـك غونـدي سـالفي (Gndisalvi Domimic) وأسند إليه مهمة إعداد ترجمات لاتينية لأهم الكتب العربية في الفلسفة والعلوم وكانت الطريقة المتبعة في هذا المجمع ، بل والطريقة السائدة في العصور الوسطى ، هي الاستفادة من خدمات المترجم الذي كـان يضع الكلمة اللاتينية فوق الكلمة العربية التي في الأصل ، وفي آخر مرحلة يراجع كبير المترجمين النص اللاتيني الذي كـان يحمل أسم مراجعه[١٨] , ومن أسبانيا انتقلت حركة الترجمة هذه إلى إيطاليا حيث استمـرت حتى منتصف القـرن السادس عشر الميلادي[١٩] .

وعلى ما يبدو ان عملية التعلم على يد المسلمين والترجمة من كتبهم كانت قد بدأت عملية فردية غير منظمة خاضعة لرغبة كل فرد وإمكانياته ورغبته في التعلم ثم تطورت إلى عملية منظمة تساهم فيها الدول الأوربية ورجال الكنيسة ، تمثل ذلك في إرسال البعثات العلمية إلى الأندلس الإسلامية لدراسة العلوم والفنون والصناعات في معاهدها الكـبرى كالبعثـة الفرنسية برئاسة الأميرة اليزابيث إبنة خالة لويس السادس عشر ملك فرنسا ، والبعثة الإنكليزية ترأستها الأميرة دوبان إبنة الأمير جورج صاحب مقاطعة ويلز ، والبعثة الأسبانية التي جمعت الطلاب من مقاطعات سفوا والبافر وسكسونيا والرين قد بلغ عدد أفرادها سبعمائة طالب وطالبة ، وتوالت البعثات على الأندلس من إنكلترا وفرنسا وإيطاليا ومناطق أخرى من أوربا فامتلأت بهم معاهد غرناطة واشبيلية[٢٠] .

الكنيسة المسيحية وتوجيه الفكر الغربي ضد الاسلام

لقد تمتعت الكنيسة[٢١] بسلطة كبيرة وواسعة على الفكر والثقافة داخل المجتمع الأوربي خلال العصور الوسـطى، وكانت الكنيسة أكبر بكثير من أية دولة في الغرب لا تسمح بأن تتدخل قوة في شؤونها وكانت هي القابضة على زمام التعليم والفكر يوم ذاك تضطهد كل من يخالفها في معتقداتها أشد الاضطهاد لا سيما بعد أن أصبح السلطان والسلطة لها في عموم أوربا[٢٢] .

فلما أقبل المسيحيون على دراسة اللغة العربية وعلوم المسلمين بشغف كبير ظهرت علامات الخوف والفزع علـى علماء ورجال الدين المسيحيون ويمكن ان نرصد هذا الخوف من خلال قول أحد الأساقفة لمعاصـريه :" أن كثـيراً مـن المسيحيين يقرؤون الشعر العربي والقصص العربية ويدرسون فلسفة المسلمين وفقههم لا لدحضها بل لإتقان العربية والتعبير بها ببلاغة وعذوبة ولكنك لا تكاد تجد من يقرأ باللغة اللاتينية الكتب المقدسة أو من يدرس الإنجيل والأنبياء والرسل ... أن الشباب المسيحيون الأذكياء لا يعرفون سوى اللغة العربية وآدابها ويقولون بملأ أصواتهم على مسمع من الكـل ان هـذه الآداب تستحق الإعجاب "[٢٣] .

لقد بدأ خوف الكنيسة من اهتمام أبناءها بالعربية والعلوم الإسلامية يزداد وكان هذا الخوف أولى بذرات العـداء المسيحي للإسلام ، هذا العداء الذي قُدر له ان يكون عداءاً تأريخياً متواصلاً غير منتهي حتى يومنا هذا , ونتيجة لهذا الخوف

والعداء فقد تبنت الكنيسة سياسة صارمة متشددة اتخذت من محاربة الإسلام واضعافه شعاراً لها ووضعت كل إمكانياتها وطاقاتها في سبيل تحقيق هذا الهدف فقد عملت على ابقاء المواطن الأوربي جاهلاً بحقيقة الدين الإسلامي بعد ما كانت تسيطر وتوجه كل معلومة تصل إلى أوربا وتتحكم بالحركة الفكرية في المجتمع ، وأفضل من وصف هذا الجهل المطبق على ذلك المجتمع المستشرق ساوثرن(Southern)[٢٤] عندما قال :" إذا ما نظرنا إلى الجهل المرتبط بالمكان المغلق ، هذا هو نوع الجهل لرجل في سجن يسمع الشائعات عن أحداث خارجية ويحاول أن يشكل ما يسمعه بمساعدة أفكاره السابقة ، الكتاب الغربيون قبل(١١٠٠م) كانوا في هذا الوضع بما يخص الإسلام لم يعرفوا شيئاً عن دين الإسلام كان الإسلام بالنسبة لهم واحداً من عدد كبير من الأعداء الذين يهددون الدولة المسيحية من كل اتجاه " .

ان الكتابات الاولى للغرب حول الاسلام كانت باقلام رجال الدين وبدافع الطعن بالاسلام والدفاع عن المسيحية لذلك روجوا جملة من الافكار التي تؤدي لخدمة مصالحهم بالدرجة الاولى فجعلوا من دور الإسلام هو الظهور والدعوة ضد المسيح عليه السلام ونبهوا ان للإسلام أثراً مدمراً للأخلاق يمكن ملاحظته لو وضعَ جنباً إلى جنب مع الأخلاق المسيحية ، وهكذا من دون ان نذكر امثلة للافكار التي كانوا يروجون لها نقول انهم قدموا صورة مشوهه للاسلام وللرسول الكريم (ص) وللقرآن [25].

هذا الموقف المتعصب قد تشكل كما أسلفنا نتيجة القلق والخوف من انتشار الإسلام في أوربا فشعر البعض من رجال الدين ان من واجبهم أن يوقظوا إخوانهم إلى الخطر الداهم وهكذا لم يكن من الصعب عليهم ان يجدوا في الإسلام ومؤسسهِ أثار مؤامرة مدبرة ضد المسيحية [26].

الاستشراق في العصر الحديث

و بسبب ما الصق بالشرق الإسلامي من صورة مشوهة خلال العصور الوسطى بفضل الكنيسة ورجالها ، لم يعرف الاستشراق كعلم الا في العصر الحديث بحدود القرن الثامن عشر الميلادي[٢٧] ، حيث ظهرت بعض الكتابات الاستشراقية المعتدلة نوعاً ما واخذ بعض المستشرقين يراعون المنهج العلمي في بحوثهم ودراساتهم ، وأصبح الاستشراق أشبه بالعلم المنظم الذي يعني بإصدار المجلات الخاصة بموضوعات الشرق وتحقيق المخطوطات المهمة واستكمالاً في تنظيم هذا العلم اتفق المستشرقون على عقد أول مؤتمر للاستشراق تكون الفرصة فيه للتلاقي والتشاور والاطلاع على آخر الدراسات الاستشراقية فكان ذلك في باريس سنة ١٨٧٣ م ليستمر بعدها بالانعقاد كل ثلاث سنوات حتى توقف في سنة ١٩٧٣م بعدما قرر مجموعة من المستشرقين التخلي عن هذه التسمية (الاستشراق) بسبب النظرة السيئة التي أحاطت بها والتهم الحادة الموجه إليها[٢٨] .

وأخيراً فان الاستشراق علم واسع له من الايجابيات الكثير مثلما له من السلبيات ومن الخطأ ان نعمم احكامنا على كامل النتاج الاستشراقي من خلال نتاج غير موضوعي ، ثم اننا هنا لا نريد ان نبرّه المستشرقين او نتغاضى عما اشاعه البعض منهم من تشويه لصورة الاسلام بقدر ما نريد توضيح قضية مهمة جداً وهي : انه ليس كل ما أنتج عند الغرب بخصوص الشرق هو استشراق الا اذا صدر النتاج من متخصص في الشرق وبالتالي قد يكون ذلك مفيداً في ان تكون نظرتنا للنتاج الاستشراقي نظرة موضوعية تتناسب وقيمة ما تطرحه تلك الدراسات من افكار واراء مهمة جداً بالنسبة لنا كشرقيين ومسلمين في الوقت نفسه .

وقبل ختام البحث لابد من الاشارة الى قضية مهمة اخرى وهي ان الدراسات الاستشرافية ذات الطابع العلمي الصريح الهادفة للوصول الى نتائج علمية غير مدفوعة باي اتجاه اخر قد تتوصل الى نتائج لا تتوافق مع معتقداتنا وما نؤمن به لسبب مهم ، وهو ان المستشرق الموضوعي قد يتوصل الى نتائجه من خلال الادلة المادية المتمثلة بالروايات التاريخية والتي تخضع لمنهج البحث العلمي في فحصها واخضاعها للعقل والنقد في حين اننا كمسلمين نعتمد على الادلة المادية والعقلية اضافة الى الادلة الروحية ، ومن هنا قد لا يأتي التوافق في الاراء ولكن يمكن معالجة ذلك من خلال مناقشة اراء هؤلاء المستشرقين ضمن المنهج المؤثر فيهم باستخدام الادلة المادية والعقلية والابتعاد عن طرح الادلة الروحية وصولاً لتصحيح افكارهم وطروحاتهم بما وينسجم مع ما نعتقد به .

ان اتباعنا للمنهج العلمي العقلي في مواجهة طروحات المستشرقين لابد ان تثمر في تصحيح الرؤية الاستشراقية للاسلام ، اذن الخطوات التي يجب ان نتبعها لاجل تصحيح هذه الرؤية والخروج من ازمتنا مع الاستشراق تتلخص بالتالي :

الاولاً: التفريق بين ما هو استشراقي وبين ما هو غير استشراقي وقد بيّنا ذلك ضمن البحث .

ثانياً: الاطلاع الكامل على طروحات المستشرقين والوقوف على اهم ارائهم بما يخص العالم الاسلامي .

ثالثاً: مناقشة هذه الاراء بمنهج علمي وبطرح عقلاني يكون مؤثر ومقبول لدى الاخر وبالتالي سينعكس ذلك على تصحيح صورة الاسلام لدى الغرب .

تم بفضله وتوفيقه

الهوامش

١) عبد المنعم محمد حسنين ، الاستشراق وجهوده وأهدافه في محاربة الإسلام والتشويش على دعوته ، مجلة الجامعة الإسلامية ، (المدينة المنورة – ١٩٧٧) ، العدد الثاني ، ص ٨٠ .

٢) حسين الهراوي ، المستشرقون والإسلام ، (القاهرة – ١٩٣٦) ، ص ٧٩ .

٣) مالك بن نبي ، انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث ، (القاهرة – ١٩٧٠) ، ص٧٠ .

٤) السنسكريتية هي (اللغة الأم لسلالة اللغات العديدة في الهند ، وكانت هذه اللغة قد انقرضت منذ زمن بعيد كأداة للتعبير في الحياة اليومية ، وهي تشابه في وضعها هذا اليونانية واللاتينية في أوربا ، ومع انقراضها من الاستخدام العام ، فمن المستحيل ان يبنى علم لغوي صحيح بلغات الهند قبل الشروع بدراستها دراسة جدية علمية) ينظر : **Arberry, A.J, British Orientalists ,(London - 1946) ,PP. 28-30 .**

5) Ibid ,P.28 .

٦) للتفصيل عن هذه الافتراءات والمزاعم ينظر :

Norman Daniel , Islam and the west the making of a lamge , (Edinburgh – 1960) , R.W.Southern , Western views of Islam in the middle ages , (Harvard – 1962) .

٧) رودي بارت ، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ، ترجمة مصطفى ماهر ، (القاهرة – ١٩٦٧)، ص١١.

8)The Compact of the Oxford English dictionary , (Newyork – 1971) , Vol . 1, 2009 .

٩) للتفصيل أكثر عن هذه الاتجاهات ينظر : مشتاق بشير الغزالي رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لكلية التربية (ابن رشد) جامعة بغداد ، ٢٠٠١، ص ص ١٢ – ١٩ .

١٠) المقصود هنا (الشخص غير المتخصص بالاستشراق ويقدم نتاجاً خاصاً بالشرق) .

١١) توماس كارليل ، الأبطال ، ترجمة محمد السباعي ، (بيروت – ١٩٧٩) .

١٢) ينظر : محمد عبد الحسين الدعمي ، المتغير الغربي : الشرق الاستشراق ، (بغداد – ١٩٨٦) ، ص ص ٢٧ – ٣٠.

١٣) المصدر نفسه ، ص ٢٨ .

١٤) برنارد لويس ، تاريخ اهتمام الإنكليز بالعلوم العربية ، ط٢ ، (بيروت – لا . ت) ، ص ٣ – ٤ .

١٥) المصدر نفسه ، ص ٤ .

16) Arberry , British Orientalists , p . 12.

١٧) أوليري دي لاسي ، الفكر العربي ومركزه في التاريخ ، ترجمة إسماعيل البيطار ، دار الكتاب اللبناني ، (بيروت – ١٩٧٢) ، ص ٢٣٣ – ٢٣٤ .

١٨) المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ .

١٩) محمد كامل عياد ، " صفحات من تأريخ الاستشراق " بحث منشور في مجلة المجمع العلمي العربي السوري ، (سوريا – ١٩٦٥) ، مج ٤٠ ، ج ١ ، ص ١٦٦ .

٢٠) علي حسني الخربوطلي ، المستشرقون والتأر يخ الإسلامي ، الهيئة المصرية العامة للكتـــاب ، ط ٢ ، (القـــاهرة – ١٩٨٨) ، ص ٢٩ .

٢١) كان نشوء الكنيسة المسيحية في الأيام الأخيرة من حياة الإمبراطورية الرومانية ، بعد أن امتدت رسالة المسيح (عليـــه السلام) إلى أوربا اصدمت بالمعتقد الروماني القديم "المعتقد الوثني " ، فقامت بعد ذلك المسيحية التي قاست ألم الاضـــطهاد حيناً من الزمن ، وتمكنت في أوائل القرن الرابع الميلادي من ضم الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية فانتشرت في عموم أوربا. ينظر : علي حيدر سليمان ، تأريخ الحضارة الأوربية ، دار واسط ، (بغداد – ١٩٩٠) ، ص ٢٥ .

٢٢) ينظر : المصدر نفسه ، ص ص ٢٤ – ٢٨ .

٢٣) لمزيد من التفاصيل ينظر : إسحاق موسى الحسيني ، الاستشراق نشأته وتطوره وأهدافه، (بيروت – ١٩٦٧) ، ص ٣ ؛ كذلك : كراتشوفسكي ، دراسات في تأريخ الأدب العربي ، ط ٢ ، (موسكو – ١٩٦٥) ، ص ٥٩ .

24) Southern , Western views of Islam , P .14 .

25) Ibid , P. 22.

26) Ibid, P. 25 .

٢٧) ينظر : محمد فتح الله الزيادي ، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منهـــا ، (طـــرابلس – ١٩٨٣) ، ص٦٨ – ٦٩ .

٢٨) محمد آركون وآخرون ، الاستشراق بين دعاته ومعارضيه ، ترجمة هاشم صالح ، (بيروت – ١٩٩٤) ، ص ١٦٣ – ١٦٤ .

قائمة المصادر

اولا: المصادر العربية والمترجمة:

1 - أركون وآخرون ، محمد
الاستشراق بين دعاته ومعارضيه ، ترجمة هاشم صالح،(بيروت ــ 1994)
2- بارت ، رودي
الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ، ترجمة مصطفى ماهر ، (القاهرة ــ 1967) .
3- حسنين ، عبد المنعم محمد
الاستشراق وجهوده وأهدافه في محاربة الإسلام والتشويش على دعوتهِ ، مجلة الجامعة الإسلامية ، (المدنية المنورة ــ 1977) ، العدد الثاني .
4- الحسيني ، إسحاق موسى
الاستشراق نشأتهُ وتطوره وأهدافهُ ، (بيروت ــ 1967) .
5- الخربوطلي ، علي حسني المستشرقون والتأريخ الإسلامي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط 2، (القاهرةــ 1988) .
6- الدعمي، محمد عبدالحسين
المتغير الغربي: الشرق الاستشراق، (بغداد - 1986).
7- الزيادي ، محمد فتح الله
ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها ، (ليبيا ــ 1983) .
8- سليمان ، علي حيدر
تأريخ الحضارة الأوربية ، دار واسط ، (بغداد ــ 1990) .
9- عياد ، محمد كامل
" صفحات من تأريخ الاستشراق " بحث منشور في مجلة المجمع العربي السوري ، (سوريا ــ 1965) ، المجلد40 ، الجزء1.
10- الغزالي، مشتاق بشير
تطور الاستشراق البريطاني في كتابة السيرة النبوية الشريفة ، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لكلية التربية (ابن رشد)جامعة بغداد، 2001 .
11- كارليل، توماس
الابطال، ترجمة محمد السباعي، (بيروت - 1979)
١٢- كراتشوفسكي
دراسات في تاريخ الادب العربي، ط ٢ ، (موسكو- ١٩٦٥)
١٣- لاسي،اوليري دي
الفكر العربي ومرطزه في التاريخ، ترجمة اسماعيل البيطار، دار الكتاب اللبناني ،(بيروت – ١٩٧٢)
١٤- لويس، برنارد

تاريخ اهتمام الانكليز بالعلوم العربية، ط ٢، (بيروت – لا.ت)

١٥– بن نبي ، مالك

أنتاج المستشرقين وآثره في الفكر الإسلامي الحديث ، (القاهرة ــ ١٩٧٠) .

١٦– الهراوي، حسين

المستشرقون والاسلام، (القاهرة – ١٩٣٦) .

ثانيا: المصادر الاجنبية:

Arberry , A . J .

1- British Orient lists , (London – 1946) .

Daniel , Norman-

2- Islam and the West the making of an Lmage , (Edinburgh – 1960)

3- The Compact of the Oxford English dictionary , (newyork _ 1971)

Southern , R. W .

4- Western views of Islam in the middle ages , (Harvared – 1962)